# ذكريات إنسانية عذبة عن الـ

بقلم: د. يوسف عزالدين
ويلز - إنكلترا

**كتب الكثير عن أدب الرفاعي وخلقه وجوده بعد وفاته، وتحدث الباحثون عن شعره وأدبه وسيرة حياته، لذلك لم يبق أمامي إلا الجانب الإنساني لما لي من علاقة وثقى وصلات حب موصولة الحلقات به، رحمه الله.**

**إن من يتصدى للحديث عنه سيجد صعوبة لاتساع صفاته وأعماله وسعة إنتاجه، وقد كتب يوم وفاته الأدباء والمفكرون وخصيصاً الصحافة صفحات كثيرة عنه.**

**كان الرفاعي مثلاً رائعاً للخلق الرضي والإنسانية السامية وطيبة النفس، وكان مجلسه الأسبوعي خير مثال على هذه الإنسانية، كان يبكر في الحضور وطالما صلى معه زواره صلاة المغرب قبل انعقاد المجلس.**

إنه منتدى لم أجد مثله في الرياض، وبعدها عقدت عدة مجالس من أبرزها مجلس الدكتور المبارك. وكان مجلس الرفاعي مفتوحاً لكل الناس ومختلف الأعمار، وقلما يزور أديب أو مفكر الرياض إلا كان يدعوه إلى داره. قد كان الدكتور محمد عبده يماني مثله في دعوات المفكرين والأدباء إلى داره وتكريم الوافدين.

وامتاز الرفاعي بمواصلة الود، فقد عملت في الطائف ولما كنت أزور الرياض يشرق علي ويلح إلحاح الكريم في الدعوة والتكريم، فأحضر منتداه ومجلسه.

وقد كان المنتدى سبيلاً للقاء الأدباء والمفكرين وقادة الرأي ومن طريف ما حدث في داره.. أنني كنت أعرف الشاعر الكبير عبدالله بلخير قبل أن أعمل في الجامعة، وكان همي الأول في أيامي الأولى التعرف عليه، وكان بجانبي أحد الحاضرين، فقلت له:

هل الأستاذ عبدالله بلخير حاضر هذا اليوم؟

قال لي: إنه موجود..

قلت : أين هو؟

كانت مفاجأة إذ قال لي: أنت يوسف عزالدين وأنا بلخير.

وفي هذا المنتدى تعرفت على الشيخ حمد الجاسر زميلي بعد ذلك في مجمع اللغة العربية، والصديق الحبيب الدكتور عبدالقدوس أبو صالح، والشاعر عمر بهاء الدين الأميري وولده البراء، والكاتب المبدع عبدالعزيز السالم، والشاعر حيدر الغدير والأستاذ عبدالرحمن المعمر صاحب دار ثقيف الذي فتح أبواب الود لي عندما عملت في الطائف، والشاعر أحمد سالم باعطب. وتعرفت على الشيخ أبي تراب الظاهري، والزميل الدكتور محمد بن سعد بن

حسين، والشاعر الدكتور عبدالعزيز خوجه، والدكتور علي الجفري، والدكتور سهيل القاضي الذي كان من خيرة رؤساء الجامعات، والاقتصادي الوفي عبدالله بامقدم، وعدد كبير لم تسعفني الذاكرة على تذكرهم لبعد العهد وحكم السن.

إن الحديث عن الرفاعي يطول وبخاصة الروح الإنسانية الفريدة التي تزين أعماله، فهو شجرة وارفة الظلال كثيرة الثمرات. وأرجو من الباحثين أن يدرسوا هذه الناحية مع إنتاجه الفكري وأدبه، فلم يتصد له غير الباحث الثبت الدكتور محمد ابن مريسي الحارثي في كتاب فريد صور الكثير من أدب الراحل وحياته. وللأسف - كما سمعت - أن الكتاب صدر يوم وفاته الرفاعي.

### عصامية الرفاعي

لم ير نور الدنيا وفي فمه ملعقة ذهب كما يقال، فقد حدث عن حياته وعصاميته بصراحة ووضوح، وقال: إنه نشأ في رعاية أمه وقد كان وحيدها، وإنه كان شجرة مفردة في البرية. فاعتمد على نفسه (فنفس الرفاعي سوّدت الرفاعي)، إذ لم يكن له أعمام أو أخوال يرعون طفولته، فقد ولد في قرية ساحلية على البحر الأحمر، لذلك قال: اعتمدت على أمي. وكانت أمه كل دنياه وكان هو كل دنياها.

كان عف اللسان فما سمعته يوماً اغتاب أو انتقد أو أساء إلى إنسان. كان ينشر الثقافة ويجود بالكتب والمجلات التي يشرف عليها وتُوزع يوم مجلسه، ويغذي العقول ويسعد النفوس: وفي المكتبة الصغيرة وفر المعرفة لكثير من الناس. وعندما أخرج مع الأستاذ عبدالرحمن المعمر (عالم الكتب) وفر العلم البعيد والقريب، وسلّمت لاختصاصي متمرس هو الدكتور يحيى الساعاتي.

### في كلية الآداب

وجدت في الرفاعي ثروة فكرية لإلقاء محاضرة، فأفاد بعلمه الحاضرين بما لم يكتب في الكتب وبخاصة عن الأدباء والشعراء في المملكة، وبذكرياته مع الرواد والكتاب والشعراء، فسدّ نقصاً كبيراً كان مجهولاً، وأثرى عقول الحاضرين، فكانت هذه المحاضرة نبعاً من ينابيع إنسانيته التي تركت أجمل الأثر في نفوس الحاضرين.

### هل أحس بدنو الأجل؟

يقف الباحث أمام القصيدة التي ألقاها في تكريمه بالنادي الأدبي بجدة في حيرة من هذا الإحساس المرهف الغريب، وكأنه ينتظر الموت، وأنه يسرع الخطى نحوه فقد قال:

**سبعون يا صحبي فجلّ مصابُ**
**ولدى الشدائد يعرف الأصحاب**
**سبعون يا للهول أية حقبة**
**طالت وران على الرحيل الصاب**
**تتراكم الأعوام فوق رؤوسنا**
**حتى تئن من الركام رقاب**
**لا تعجبوا إن ند خاطر متعب**
**بعد السرى وشكا إليه ركاب**

إنه وصف رائع لإنسان مرهف الحواس، رسم صورة الإنسان وقد بلغ السبعين من العمر الذي ظن الناس بأنه كان سعيداً لشهرته ومكانته المرموقة، موظفاً كبيراً وعضواً في مجلس الشورى، وعضواً في مجمع اللغة العربية فقال:

**الجد أغراني برغم جفافه**
**فظمئت حتى لو أتيح شراب**
**سبعون.. ظن أحبتي أني بها**
**أعلى القباب وما هناك قباب**

ولكنه أحس في قرارة نفسه أثر هذه السنين الطويلة المرهقة بالألم:

**سبعون قد وفد الشتاء يزورني**
**والنار قد خمدت وليس ثقاب**

لا يعرف معنى هذه المعاناة إلا الذين وصلوا هذا العمر وأنا أولهم.

## ـصديق العـذب

في الندوة الرفاعية .. د . يوسف عزالدين في الوسط

وأخيراً أحس بدنو الأيام من الأجل المحتوم فقال:

**حنت إلى عبق التراب جوانحي**
**لا غرو يشتاق التراب تراب**

وتبدو سجاياه السامية في الحب والإلفة والوفاء بقوله:

**طوبى لمن جعل المحبة جدولاً**
**وسقى أحبته فطاب وطابوا**

ما أكرم هذه المحبة التي تتدفق فتروي وتروى، وهل في الدنيا أجمل من الحب والصداقة والعاطفة الصادقة؟ والحق أن جميع من عرفه طابوا بشراب محبته ونمير وده، وبادلهم الحب بالحب الصادق.

## الحس الحضاري:

لما كنت أميناً عاماً للمجمع العلمي العراقي زارني رحمه الله وأعطاني ورقة فيها اسم كتاب من مطبوعات المجمع فوجدته غير راض عن اللقاء، فقد شرب الشاي ولما أوصلته للسيارة وجد جميع مطبوعات المجمع في السيارة، فابتسم وصافحني بحرارة وقال لي: أسأت الظن لأنك لم تكترث بالورقة، وما كنت أعرف هذه المفاجأة.

وكانت هذه الحادثة هي التي وثقت الصلة والمراسلات بين المجمع والرفاعي، وهو من القلة الذين يتسمون بالحس الحضاري والمجاملة الإنسانية. إن الهدية أسست الصلة بيننا طول العمر.. فأنا كثيراً ما أهدي كتبي ومؤلفاتي للزملاء والأصحاب، وقلة من هؤلاء هم الذين يشكرون بل يذكرون، وما أكثر من لا يشكر!:

وقد أكد لي الكاتب المعروف الأستاذ وديع فلسطين بأن الرفاعي امتاز بالحس الحضاري، فقد كان يكتب للأدباء في المملكة، وكان لا يرد عليه إلا القليل من الأجوبة، وكان الرفاعي يرد على الرسائل بأحسن منها.

ولابد أن أذكر أن في المملكة من يملك هذا الحس الحضاري والوفاء الكبير هو الشيخ عبدالوهاب عبدالواسع والصديق عبدالعزيز الخويطر وهما نادران في هذا الزمن.

## وأخيراً .. كرمه خارج الحدود:

فقد كان إذا ما حضر الرفاعي مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة يجمع الأحباب والأصحاب في أحد الفنادق على موائده السخية فقلت له: كرم في الرياض وجود في القاهرة!

كان الرفاعي فذاً في الرجال، وأتمنى أن يكتب عن أدبه كما كتب الدكتور الحارثي عن كتبه، وتطبع جميع مؤلفاته، فقد أثر في حياة الفكر والأدب كما أثر في إنسانيته رحمه الله، إنه عصامي كون نفسه. وهي أجمل السجايا في الجد والعمل الدائب، بدأ من الصفر وأصبح علماً من الأعلام وهكذا الرجال الأفذاذ ■